وصف المرض والموت لبلاد الترك والصقالبة البلغار والروس والخزر في رسالة ابن فضلان :

أ . م . د. زمان عبيد وناس
كلية التربية / قسم التاريـــــخ

الخلاصــة :-

بدأ التأليف لدى العرب في أخبار المسالك والممالك منذ مطلع القرن الرابع للهجرة ، حتى صار فناً مستقلا بذاته في ما بعد ، فظهرت كتب الجغرافية والبلدانيات والأقاليم تصف البلدان ومواقعها ومسالكها وممالكها وأنهارها وجبالها من بلاد المغرب والأندلس غربا حتى بلاد الهند والصين شرقاً ، ومسافات بلاد القوقاز والترك وأوربا شمالاً وصحارى بلاد أفريقا جنوباً ، فكتب اليعقوبي(ت284هـ) [1] وابن خرداذبة(ت 300هـ) [2] والهمداني(ت334هـ) [3] وقدامة بن جعفر(ت337هـ) [4] وابن الفقيه الهمداني (ت340هـ) [5] والمسعودي(346هـ) [6] والاصطخري (ت346هـ) [7] وابن حوقل(ت367هـ)[8] ، والبكري (ت487هـ)[9] وغيرهم ، فدونوا أخبار الشعوب وأحوالها وخراجها ومسالك بلدانها ، فبلغ بعضهم الدقة حين سجل ما رأى .

وقد اشتملت رحلات بعضهم ميداناً واسعاً بلغ حدود بلاد الروس[10] والخزر[11] ، لكنها في جملتها قد أوجزت فيما وصفت من أحوال الشعوب ومعتقداتها ، واقتصرت على ذكر طرقها وبضاعاتها وما يجلبه التجار منها .[12]

فجاء ابن فضلان ليحتل المكانة الأولى بينهم على حد قول المستشرق الروسي كراتشكوفسكي ، فهو يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية في العالم الإسلامي ، والعلاقات بين البلاد الإسلامية والبلاد المتاخمة لها في أسيا الوسطى أو الأصقاع النائية التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك ، مثل حوض الفولكا ، إذ تحفل رسالته بمادة اثنوغرافية قيمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة ، وهي تعنى بعدد من القبائل التركية البدوية القاطنة أراضي آسيا الوسطى ، وعددٍ من الشعوب التي كانت تلعب دورا أساسياً في تاريخ أوربا الشرقية آنذاك ، مثل الصقالبة البلغار[13] والروس والخزر[14] ، هذا فضلا عن البلاد الاسكندينافية ، فخص ابن فضلان في رسالته معلومات نادرة عن تلك الشعوب الغامضة جداً والنائية ، فغدت إذاً وثيقة حقيقية لا تتعلق بالبلغار وحدهم بل تتعلق بكل من ذكرتهم الرسالة ، الخوارزميين[15] والغز[16] وقبائل البجناك[17] والباشغرد التركية[18] ، فضلاً عن الروس والخزر وإن كان سبب الرحلة تتركز في الوفادة إلى بلاد الصقالبة البلغار .[19]

ولما كانت بغداد تمثل حاضرة الدنيا ومحط أنظار الناس ، على الرغم من تدهور أوضاعها السياسية في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد ، إلا أنها حافظت على هيبتها الكبرى في العالم الخارجي ، فضلاً عن مهابتها الروحية داخل دار الإسلام ، فقد أرسل ملك الصقالبة البلغار إلى بغداد طالباً من الخليفة العباسي المقتدر بالله (295-320هـ) العون ضد ملك الخزر الذي كان يضغط عليهم من الجنوب ، وأن ينفذ إليهم من يفقههم في الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام الذي اعتنقوه منذ عهد قريب وأن يبني لهم مسجداً وحصناً يتحصن فيه الملك من مخالفيهم من ملوك الخزر ، وكذا أن يرسل له أدوية كان كتب ملك الصقالبة يطلبها .[20]

وهذه إشارة واضحة ذات دلالة على تفوق الحضارة العربية وغناها على مثيلاتها الأوربية في ذلك الوقت ، وهذا ما دعانا حقا لدراسة تراث تلك الأمم في معالجة المرض وطرق تجهيز الميت ومراسيم الدفن من خلال رسالة ابن فضلان ، في ذات الوقت الذي كانت فيه البلاد العربية تعج بالمارستانات (المستشفيات) ذات المستوى الطبي المتألق ، فالبلدان الإسلامية كانت تشهد تطور طبي عظيم بالمقارنة مع التخلف الأوربي الأعمى ، فأردنا من خلال البحث أن نظهر الفرق بين دار الإسلام والبلاد الأوربية في طرق معالجة المرضى وآثار الإسلام الحنيف في تجهيز الميت ودفنه ، ولعل بعضهم من يقول أن رحلة ابن فضلان تصف بلادا هي اقرب إلى البدائية من تلك المتحضرة في بقية بلدان أوربا لاسيما بيزنطة على سبيل المثال لا الحصر ، لكن القول أن اساليب الاستطباب لدى صليبيي بيزنطة ومن سواهم من امم أوربا كانت ما زالت في هذا الوقت مرتبطة بالرمزية القدسثية (الاسطورة الميطيقية) في طرق معالجة المرض ، أي أنها تعتمد ذات الطرق والاساليب التي مارستها شعوب شمال شرق اسيا وشرق أوربا ، لذا فمقارنة وسائل الاستطباب مع ما كان عليه العرب والشعوب التي ذكرت في رحلة ابن فضلان تنسحب كذا على جميع البلاد الأوربية .

وقبل أن نبدأ بوصف المرض والموت في البلدان والأمم التي مر بها ابن فضلان وهو في طريقه مبعوثا إلى بلاد الصقالبة لابد لنا من تقديم عرضا موجزا للعصر الذي انطلقت فيه الرحلة ، عصر ابن فضلان ، كي نظهر مكانة العرب آنذاك بمقابل البلدان الأوربية .

Abstract :-

Since the beginning of the fourth century of migration began authoring the Arabs in the news tracks and kingdoms, until he became an art autonomous in the post, which showed the geography books and Albuldaniet and Territories describe countries and its positions and its tracts and Mmalkha and rivers and mountains of the Maghreb and Andalusia in the west to India

and China in the east, and spaces the Caucasus, and Turks and Europe, north and deserts of the country Avrivia south, he wrote Yacoubi (d. 284 AH) and Ibn Khrdazbh (d. 300 AH) and Al-Hamdani (d. 334 AH) and Qudaamah ibn Ja'far (d. 337 AH) and Ibn al-Faqih Al-Hamdani (d. 340 AH) and Massoudi (346 AH) and others, Vdonowa News people and their conditions and its outlying areas and pathways of their countries, bringing them accuracy while the record what he saw.
Some trips have included a wide field and reached the limits of the country's Russian and Caspian, but on the whole been outlined and described in the conditions of peoples and beliefs, and limited to said methods and Daatha and traders bring them.
Came Ibn Fadlan to occupy the first place, including the words of Orientalist Russian Kraczkowski, it offers us a vivid picture of the political situation in the Islamic world and the relations between Islamic countries and the country adjacent to it in Central Asia or remote areas, which accounted for the parties to the civilized world at that time, such as swimming Alvolka, We are packing his textured ethnographic very valuable and varied in a unique, affecting a number of Turkish tribes Bedouin inhabiting the territory of Central Asia, and a number of peoples in which she played a key role in the history of Eastern Europe at the time, such as Alsqalbh Bulgarians, Russians and the Khazars, not to mention the country, Scandinavian, Fajs Ibn Fadlan in his information rare for these people the mysterious and very remote, then it is a close real is not about Balblgar alone but in relation to each of reminded them of the message, Akhawarzmeyen and Ghaz and tribes Abajnak and Albachgrd Turkish, as well as the Russians and the Khazars, although the reason for the trip is concentrated in the hospitality to the country Alsqalbh Bulgarians .
As Baghdad is the capital of the world and the focus of attention of the people, despite the deteriorating political situations in the fourth century of migration / tenth birthday, but it maintained the prestige of major in the outside world, as well as its dignity spiritual within the Dar al-Islam, has sent the king Alsqalbh Bulgarians to Baghdad students of the Abbasid Caliph al-Muqtadir God (295 320 e) aid against the king of the Khazars, who was pushing them from the south, and to implement them by Evqham in religion and known to the rituals of Islam espoused recently and build them a mosque and a fortress holed the King of the wrongdoing of the kings of the Khazars, as well as that send him drugs he wrote King Alsqalbh request. This is a clear signal indicative of the superiority of Arab culture and richness to those of Europe at that time, and this is why we have to really study the heritage of those nations to treat the disease and methods of processing the dead, and burial with a message Ibn Fadlan, We wanted through research that show the difference between Dar al-Islam and the country European ways of treating patients and the effects of orthodox Islam in the processing of the Dead and buried.

أ ـ عصر رحلة ابن فضلان :

كانت البلاد العربية في العصر الذي عاشه ابن فضلان ترفل بالوفرة الحضارية والازدهار الفكري والثقافي والمدني والعمراني ، وتزهوا فيه البلاد بمكانتها وغنى حياتها وتأنقها ، لاسيما دار الخلافة ببغداد ، ولعل ابن الطقطقي يعطي صورة ذلك من وصفه لعصر المقتدر بالله بعد أن بُيع للخلافة سنة 295هـ وهو في سن ثلاثة عشرة سنة ، فقال : ((وكان المقتدر سمحا كريما كثير الإنفاق ، رد رسوم الخلافة من التجمل وسعة الادرارات والمعاش وكثرة الخلع والصلات ، كان في داره احد عشر ألف خادم خصيّ من الروم والسودان ، وكانت خزانة الجوهر في أيامه مترعة بالجواهر النفيسة))[21] ، وجاء ليحكم مملكة عادت إليها هيبة الخلافة واسترجعت فيها البيروقراطية الإدارية وأهميتها وفعاليتها ، وتوقف الجيش على التلاعب بسياستها العامة ، وحصل نوع من الوئام والتوازن بين مختلف عناصر الدولة[22] ، إلا أن حكمه شهد رجوع الانقسام والتصادم بين العناصر المتنفذة وتضعضع وضعها السياسي ، وكانت هناك ظروف متعددة قامت بدورها في تصدع كيان بني العباس ، يصفها ابن الطقطقي قائلا : ((اعلم إن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذاتها ، فخربت الدنيا في أيامه ... واختلفت الكلمة فخلع ثم أُعيد ثم قتل))[23] ، ويقول مسكويه : أن جملة ما نفقه المقتدر تلفا وتبذيرا 89/800 مليون ديناراً معه ما صرفه بمواضعه .[24]

وقد استوزر المقتدر ثلاثة من المع وزراء بني العباس ، رجعت الوزارة أيامهم إلى أهميتها في تسيير سياسة الدولة ، وهم أبا الحسن علي بن الفرات [25] وعلي بن عيسى الجراح [26] وحامد بن العباس[27][28] ، فكانت لهؤلاء أعمال كثيرة .

وما يهم في البحث إظهار هيبة البلاط العباسي الذي اشتغل فيه ابن فضلان ودعاه إلى أن ينظر بعين الاحتقار والتعجب والاستصغار لكل ما مر به ورآه ، مقارنةً ببلاط بني العباس المترف ، ولعلنا نقتفي أثر الدكتور سامي الدهان محقق رسالة ابن فضلان[29] في إظهار هذا الترف عندما أشار إلى حادثة وثقها مسكويه في كتابه تجارب الأمم يصور فيها حال بغداد وبلاطها سنة 305هـ عندما زارها رسل ملك الروم طلبا للفداء ، فقال مسكويه واصفاً : وفي سنة 305هـ ورد رسولان لملك الروم إلى مدينة السلام على طريق الفرات بهدايا عظيمة وألطاف كثيرة يلتمسان الهدنة ، فأنزلا في دار صاعد بن مخلد[30] ، وتقدم وزير المقتدر أبو الحسن بن الفرات بأن يفرش لهما ، ويعد فيه كل ما يحتاجان إليه من الآلات والأواني وجميع الأصناف ، وأن يقام لهما ولمن معهما الإنزال الواسعة والذبائح الكثيرة والحلاوة حتى يتسع بذلك كل من معهما ، والتمس الرسولان الوصول إلى المقتدر بالله ليبلغاه رسالة ملك الروم التي معهما ، فأُعلما إن ذلك متعذر صعب لا يجوز إلا بعد لقاء وزيره ومخاطبته فيما قصدا إليه ، وتقرير الأمر معه والرغبة إليه في تسهيل الإذن على الخليفة والمشورة عليه بالإجابة إلى ما التمساه ، فسألا لأجل ذلك الوزير أبا الحسن بن الفرات الإذن لهما في الوصول إليه فوعدهم باليوم الذي ذكر لهم بأنه سوف يسمح بمقابلة الخليفة بعد إذنه . [31]

وتقدم الوزير بأن يكون الجيش مصطفا من دار صاعد إلى الدار التي أُقطعت إليه بالمخرم[32] ، وأن يكون غلمانه وخلفاء الحجاب العاملين بداره منتظمين من باب الدار إلى موضع مجلسه ، وبسط له في مجلسٍ عظيم مذهب السقوف في دار منها يعرف بدار البستان[33] بالفرش الفاخر العجيب ، وعُلقت الستور التي تشبه الفرش واستزاد في الفرش والبسط والستور ما بلغ ثمنه ثلاثين ألف دينار ، ولم يبق شيء تُجمل به الدار ويفخم به الأمر إلا فعله ، وجلس على مصلّى عظيم من ورائه مسند عالٍ والخدم بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله ، والقواد والأولياء قد ملؤوا الصحن ، فدخل إليه الرسولان وهو على حال الفخامة هذه فشاهدوا في طريقهما من الجيش وكثرة الجمع منهم وبقية الخدم والعمال ما هالهم . [34]

ولما دخل الرسولان دار العامة التي للوزير بالمخرم أجلسهما الحاجب في رواقها والرجال قد امتلأت الدار بهم ، ثم أخذ الحاجب يسير بهما بممر طويل من وراء هذا الرواق حتى أخرجهما إلى صحن البستان ، ثم مال بهما إلى المجلس الذي كان الوزير جالساً فيه ، فشاهدوا من بهاء المجلس والفرش الذي فيه وكثرة الجمع منظراً عجيباً جليلاً[35] ، وكل هذا كان أقل ما عرضه الوزير من هيبة بغداد ، وكان المترجم الذي حضر معهم من ثغور المسلمين مع بلاد الروم يترجم لهم ويصف ، وكان ممن حضر المجلس هذا صاحب الشرطة بجميع رجاله وصار بين يدي الوزير ابن الفرات ، وأخذ المترجم يترجم بين الفريقين ، وتحدث الرسولين في رغبة ملك الروم بالهدنة إقامة الفداء ومسائلة الخليفة المقتدر بالله الإجابة إليه ، فأعلمهم الوزير أنه يحتاج إلى مخاطبة الخليفة فيما ذكراه ثم العمل فيه فيما يرسمه ويقرره ، ثم التمسا إيصالهما إليه ، فواعدهم الوزير على ذلك . [36]

وعندما أُخرجا من بين يديه أخذ بهما الحجاب من الطريق الذي دخلا منه وعاد إلى دار صاعد والجيش منتظم طوال الطريق بأحسن زي وأكمل هيأة . [37]

وبعد أن وصف مسكويه هيبة المكان والأبهة التي دهشت الوفد المرسل وعظيم رسوم الخلافة وأناقتها حتى هالهم ما شاهدوه ، أخذ يصف عمل الوزير بتأنق دار الخلافة وإظهار هيبتها وعظيم أناقتها وفخامتها ، بالشكل الذي يفوق ما رأوه من دهشة في دار العامة عند ابن الفرات .

فقال : وبدأ الوزير بأن تقدم إلى سائر الأولياء والقواد وسائر أصناف الجند بالركوب إلى دار الخلافة ، وأن يكونوا منتظمين للظهر من دار صاعد إلى دار الخليفة ، فركبوا ووقفوا في الطريق على هذا الترتيب في الزي الحسن والسلاح التام ، وتقدم الوزير بأن تُشحن رحاب الدار والدهاليز والممرات بالرجال والسلاح ، وأن يفرش القصر بأحسن الفرش ، ولم يزل ابن الفرات يعمل ذلك حتى أكمل من جميع ما ذكرنا ، ثم أرسل إلى الرسولين بالحضور ، فركبا إلى دار الخلافة على الظهر ، وشاهدوا في طريقهما من الجيش وكثرته وحسن زيه وتكامل عُدته أمراً عظيماً .[38]

ولما وصل الرسولان إلى دار الخلافة ، أخذ بهما في ممر يفضي إلى صحن من تلك الصحون ثم مال بهما إلى ممر آخر وأخرجا إلى صحن أوسع من الأول ، ولم تزل الحجاب يخترقون بهما في الصحون والممرات حتى تعبا من المشي وانبهرا ، وكانت تلك الصحون والممرات محشوة بالغلمان والخدم إلى أن قربا من المجلس الذي يجلس فيه المقتدر بالله والأولياء وقوف على مراتبهم ، والمقتدر بالله جالس على سرير ملكه وأبو الحسن بن الفرات واقف بالقرب منه والخادم مؤنس [39] ومن دونه من الخدم وقوف عن يمينه ويساره ، فلما دخل الرسولان إلى المجلس فقبلا الأرض ووقفا حيث استوقفهما نصر الحاجب وأديا إليه رسالة صاحب الروم في الفداء ورغبا إليه في إبرام الاتفاق معه .

فأجابهم الوزير عن الخليفة بأنه يفعل ذلك رحمة للمسلمين ورغبةً في فكهم من الأسر وإيثاراً لطاعة الله عز وجل ، وأنه ، أي الخليفة ، سيرسل مؤنساً الخادم لحضور ذلك الفداء ، ولما خرج الرسولان من دار الخلافة خُلع عليهما مطارف خز[40] مذهبة وعمائم خز ، وانصرفا على الظهر والجيش على حاله منتظم .[41]

وبمقابل هذا الترف وهذهِ الحضارة كان ابن فضلان يستصغر أحوال الممالك التي رآها ، لاسيما ممالك شمال شرق أوربا ، الصقالبة والروس والخزر.

ـ أبن فضلان مؤلف الرسالة:

على الرغم من منزلة أحمد بن فضلان وأهمية رحلته التي بعث بها المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة البلغار سنة 309هـ ، إذ قال ياقوت الحموي : ((وقصة ابن فضلان وإنفاذ المقتدر له إلى البلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدي الناس ، رأيت منها عدة نسخ))[42] ، إلا أن كتب التاريخ والسير والجغرافيا العربية لم تعطينا تفصيلاً عن حياته أو أسمه ونسبه ، سوى ياقوت الحموي الذي نقل عنه أكثر من موضع في معجمه ، فقال هو : ((أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان[43] رسول المقتدر بالله على ملك الصقالبة)) .[44]

وفي الأعلام كان في أوليته من موالي محمد بن سليمان الحنفي ، ثم أصبح من موالي المقتدر بالله[45] ، وسبق وأن حاول الدكتور سامي الدهان جاهداً تقصي أخباره ومعرفة نشأته وظروف حياته فلم يتسنى له ذلك ، سوى بعض التحليلات التي توصل إليها من خلال تدقيقه في نصوص الرسالة وظروف رحلته التي قام بها ، والتي وجد فيها أن له مستوى من الرقي المعرفي والثقافي ما يجعله يتمتع بحس أدبي ، ونظرة ثاقبة مكنته من كتابة رسالته بدقة هو يصف البلاد التي اجتازها والشعوب التي مر بها ، فكانت رسالته على حد قول الدهان : أشبه ما تكون من تقرير رسمي قريب إلى ما يكتبه السفراء اليوم ، فقد وفق في ذلك أشد التوفيق ، مما يجعل ابن فضلان سيدا من سادات السياسة في عصره في البلاط العباسي ، وهذا دليل نجاحه في مهمته ورسالته ، فلا شك أن مسئوليه كانوا ينظرون إليه على أنه شخص ممتاز ، إذ وقع عليه اختيار الخليفة ووزيره حامد بن العباس .[46]

ولا غرو أن لنشأته أثر في ذلك ، فهو نشأ في بيت واحداً من أكابر قادة بني العباس الذي ينتمي في أصله إلى بيت عُرف بالأدب والكتابة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى أنه ، أي ابن فضلان ، صار من موالي الخليفة المقتدر بالله فنهل من آداب الملك والسياسة في البلاط العباسي .

ـ الوفد ووصف الرحلة :

لما وصل وفد ملك الصقالبة البلغار ألمش بن يلطوار ، من شمال أوربا على طرف نهر الفولكا (آتل) إلى بغداد ، حاملين رسالة ملكهم ، وكان قد اعتنق الإسلام قُبيل ذلك بقليل [47] ، يطلب عون الخليفة المقتدر العباسي في إنفاذ إليه من يفقهه في الدين ، ويعرفه بشرائع الإسلام ، ويبني له مسجداً ، وينصب لهُ منبراً ، وليدعوا له في بلاده ، وأن يبني لهُ حصناً يتحصن فيه عن ملوك الخزر المخالفين له في الجنوب ، فضلاً عن أدوية كان قد طلبها ، وكان الرسول إلى المقتدر بالله من صاحب الصقالبة رجل يقال له عبد الله بن باشتو الخزري[48] . **(49)**

فما كان من الخليفة المقتدر ووزيره حامد بن العباس إلا أن يوافقوا فانتدبوا من جهتهم سوسن الرسي**(50)** مولى نذير الحرمي ، وتكين التركي ، وبارس الصقلابي ، ويقول ابن فضلان : ((وأنا معهم))**(51)** وأضاف ((وندبت أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدى إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين))**(52)** ، فكان ابن فضلان على هذا الأساس احد أفراد الوفادة كفقيه ذي خبرة **(53)**.

وقد بدأت الوفادة خارجة من مدينة السلام بغداد يوم الخميس لأحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة 309هـ/21 حزيران 921م ، وقضت في الطريق ما يقرب من أحد عشر شهراً ، ووصلت إلى بلاد الصقالبة البلغار في الثامن عشر من محرم سنة 310هـ/12 أيار سنة 922م ، وقد مرت في طريقها بهمذان [54] والري [55] ونيسابور[56] ومرو [57] وبخارى [58] وفيها التقى ابن فضلان بوزير السامانيين**(59)** الجيهاني**(60)** ، ثم ساروا مع نهر جيحون إلى خوارزم**(61)** عند بحر آرال**(62)** ، وعبروا صحراء أوست أورت من بلاد الروس ، ثم نهر يابق ، فوصلوا إلى نهر الفولكا الذي يسميه (آتل)**(63)** ، أما خط سير العودة إلى بغداد فهي غير معروفة ، وعلى حد قول كراتشكوفسكي ، فإن خاتمة الرحلة قد امتدت إليها يد الضياع . **(64)**

وفي طريق الوفادة هذهِ لاقى ابن فضلان ورفقائهِ المصاعب والأهوال من شدة البرد وقسوة طريق بلاد الشمال ، وهو يجتاز بلاد فارس وخوارزم والجرجانية ، وبلاد الترك الغزية والبجناك والباشغرد ، والصقالبة البلغار ، والروس والخزر ، فيقول وهو في طريقه إلى خوارزم قادماً من بخارى : ((فكنا نسير بعض النهار ، ولا يستوي لنا سيره كله من البرد وشدته إلى أن قدمنا خوارزم)) **(65)** .

أما في الجرجانية وعندما جمد نهر جيحون [66] حتى صارت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لا يتخلخل من شدة انجماده ، فيقول : فرأينا بلداً ما ظننا إلا بابا من الزمهرير قد فتحت علينا منه ، فلا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصفة شديدة ، إذا ما أراد الرجل فيها يبالغ في بر أحداً ، دعاه إلى أن يتحدث معه على نارٍ طيبة **(67)** ، وقد أطال ابن فضلان ورفاقه إقامتهم في الجرجانية لشدة البرد ، حتى روى أن رجلين من أهلها ساقا أثنى عشر جملاً ليحملا عليها حطباً من بعض الغياض[68] ، فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحرّاقة**(69)** فبقيا بغير نار ، فأصبحا والجمال موتى من شدة البرد**(70)** ، وأضاف قائلاً : ((ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلوا حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحداً ولا يستقبله إنسان)) **(71)** .

ويمكن أن نتصور شدة البرد في تلك الفلاة وما كان يعانيه ابن فضلان ورفاقه ، حتى أنه صور لنا بعض معاناته اليومية في داره التي استأجرها إذ قال : ((لقد كنت أخرج من الحمام فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج ، حتى كنت أدنيها إلى النار ، ولقد كنت أنام في بيوت جوف بيت وفيه قبة لبود تركية وأنا مدثر بالأكسية والفرى ، وربما التصق خدي على المخدة)) . [72]

وكل ما ذُكر من لباس لم تكف الناس لتقيهم شدة تلك الظروف المناخية القسرية ، فإلى جانب تلك اللبود التي أخبر عنها ابن فضلان رأى نوع من الجباب تسمى البوستينات من جلود الغنم لئلا تتشقق وتنكسر ، والبوستينات هي الفرش المصنوع من الجلد الغليظ ، وهي مع ذلك لا تغني عن ذلك شيء ، بل أن الأرض تتشقق فيها أودية لشدة البرد ، والشجرة العظيمة لتنفلق بنصفين من جراء ذلك ، ولكثرة ما كان يلبس ابن فضلان ورفاقه وقاية البرد ، كان الواحد منهم إذا ركب الجمل لا يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب . [73]

وفي بلاد الترك بعدما غادروا الجرجانية لاقى فريق الوفادة الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلج الذي يصفه أبن فضلان بقوله : كأن برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف من شدة برد تلك البلاد حتى أنهم أشرفوا على تلف الأنفس . [74]

وطقس بلاد الأتراك الغز والبنجاك والباشغرد لا يختلف عن طقس بلاد الصقالبة البلغار والروس والخزر .

ولم يكن الطقس وحده ما يهدد رحلتهم بل الأراضي التي مروا بها من جبال وأنهار وصحارٍ قفار متجمدة ، وقاطعي الطرق وسراق ، لاسيما في بلاد الباشغرد ، إذ قال : ((ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم الباشغرد فحذرناهم أشد الحذر ، وذلك أنهم شر الأتراك وأقذرهم وأكثرهم إقداماً على القتل)) [75] .

وعلى أية حال فأن وصف أبن فضلان لم يقتصر على وصف مخاطر الطريق فحسب ، بل وصف حال الشعوب التي مر بها وصولاً إلى بلاد الخزر اقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً ، وعادات وتقاليد ، وطرق عيش ، وديانات مختلفة[76] ، لذا يصدق قول كراتشكوفسكي عن رسالته : ((وتحفل الرسالة بمادة انثوغرافية قيمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة))[77] ، ولكونها مصدراً نادراً يُعّرف بملامح الجغرافيا لتلك المناطق ، في وقت لم يكن تاريخ أوربا الشرقية والصقالبة البلغار والروس والخزر وما جاورها معروف في العصور الوسطى وما سبقها ، فضلاً عن عدداً من القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الوسطى[78] ، لذا فهي أقدم ما قُدم من معلومات عن بلاد تلك الأصقاع وشعوبها ، وهذا ما دفع الكثير من باحثي ومستشرقي الروس والدول الاسكندينافية تقصي رسالة ابن فضلان ودراستها .[79]

ـ في وصف المرض والموت لبلاد الترك والصقالبة البلغار والروس والخزر من خلال رسالة ابن فضلان :

ما يهم في هذا البحث وصف المرض والموت وطرق تجهيز الميت ودفنه ، وما يرافق ذلك من عادات وتقاليد ، متعلقة اصلا بمعتقدات تلك الشعوب ، فوسائل الاستطباب لديهم مرتبطة برمزية دينية وتجليا قدسيا ، فلذا عبروا عنها أنها تمتلك قوة فاعلة ، أو أنها ذات تأثيرا سحريا أو حتى أنها ترتبط بفعل ميطيقي (اسطوري) لتلك الشعوب (بدائية التكوين) وقد تقيم هذه القوى القادرة في ماهية الشيء نفسه ، اوفي صورته الطوطمية ، كأن تكون صخرة (صنم) تتكشف عن قدسية لان وجودها يمثل تجلٍ قدسي بحد ذاته ، لذا فان من يقوم مقام الطبيب في هذه الاقوام له صلة بذلك التجلي ومعرفة بأصل المرض ، لان للمرض أصل ميطيقي أيضا مرتبط بالمعتقد ، وهو الكاهن أو الساحر .

وهذا الأمر لا ينحصر على الوثنية في العصور الوسطى بل اليهودية والمسيحية تشترك في ذلك إذ لها رمز تكويني مطابق لما سلف ذكره ، فمن يقوم بالاستطباب هو الكاهن أو الحبر أو القس ، لانه عالم بذلك التجلي القدسي (هيكل سليمان لدى اليهود والمذبح والثالوث والمسيح المنقذ لدى المسيح) ، الذي هو ممتلئ اصلا بالقوة الدينية أو السحرية بسبب من صورته الرمزية ، وايضا له معرفة كما نوهنا باصل المرض الميطيقي (التكوين الاسطوري البدائي) .[80]

اذا فكل وسيلة لها رمزية (دينية) واعني بذلك كل وسيلة حياتية سواء اكانت استطبابية ام أي شيء اخر لها رمزية تكوينية منها يتم معالجتها ، فمثلا الطعام ليس مجرد عملية فيزيولوجية ، بل هو اشارة لتجدد الحياة ، أو عودة الحياة بذبح قربان ، وكذا الزواج وحفلات الجنس الجماعية (الاباحية الجماعية) ترجع في اصلها إلى رمز ديني اسطوري وإنما يكررها الانسان في رمزيته ، لان الآلهة في الوثنية أو الاسلاف لدى القبائل والشعوب في مراحل حياتها المختلفة كانوا قد قدسوها في بدء التكوين ، واعني بذلك بدء تكوين الخلق ووجود الانسان على الارض .

وهذا اساسا يظهر مدى تاثر الانسان بالطبيعة ، فأصبح لكل فعل له اصل في السماء ، أي مركزية السماء ، أي أن الطقوس والافعال الدنيوية ذات دلالة باشرها في الاصل اله أو بطل أو اسلاف ، ويحاكيها الانسان في الحياة الدنيا في زواجه ومرضه وموته وغيرها من مظاهر حياته المختلفة ، وهذا ما نريد أن نبينه عند حديثنا عن المرض والموت وطقوسها المطبقة في الشعوب التي ذكرناها ، هذا اصلا ما دعانا أن نقدم هذه الفقرة ، وحتى لا ندخل مدخلا فلسفيا في شرح معتقدات تلك الاقوام سوف نترك الخوض بهذا ، ونتعرض بالتحليل الرمزي لما له علاقة بطقوس معالجة المرض والموت التي وصفها ابن فضلان في رحلته وحتى لا تكون مجرد عرض صوري لما شاهده من طقوس .

وعودة إلى القول أن ما يهم في هذا البحث ، هو وصف المرض والموت وطرق تجهيز الميت ودفنه ، وما يرافقه من عادات وتقاليد وعقائد في تلك البلاد التي ذكرنا وأشار إليها أبن فضلان في رسالته للدواعي التي سبق وان تحدثنا عنها في بادئ الأمر ، من إظهار ما كانت عليه البلاد العربية من تقدم طبي في عصر تلك الرحلة وكتابة الرسالة ، بالمقارنة مع ما كانت عليه البلاد الأوربية ، لاسيما الشرقية منها ، ففي بغداد وحدها كانت هناك أربعة بيمارستانات (مستشفيات) كبيرة تحت إشراف الدولة زمن الخليفة المقتدر بالله ، فكان وزيره علي بن موسى مهتما برخاء الرعية ، يصدر الأوامر بإصلاح المرافق العامة والبيمارستانات[81] ، يقول مسكويه : ((ثم عمر البيمارستانات وأداء الأرزاق لمن ينظر فيها ، وأزاح علل المرضى والقوّام ...))[82] ، وعلى الرغم من هذه البيمارستانات الأربع في بغداد التي ذكرنا إلا إنها لم تكن كافية ، فبنا الوزير مستشفى أخرى في محلة الحربية[83] أنفق عليه من ماله الخاص .[84]

وعلى هذا لم تكن مسؤولية إقامة المستشفيات في البلاد العربية الإسلامية وشحنها بالمطببين والخدمة وأنواع العلاجات على الدولة فحسب بل ساهم في ذلك كبار رجالات الدولة وأفراد الأسر الحاكمة وميسوري الحال ، وغية هؤلاء من ذلك دفعا للصدقة وابتغاءً لمرضاة الله .

ـ وصف المرض وطرق معالجته :

في الحديث عن المرض وطرق معالجته والاستشفاء منه لدى الأمم التي مر بها أبن فضلان أبان رحلته مبعوثا من قبل خليفة المسلمين في بغداد إلى ملك الصقالبة البلغار ، يجد قارئ رسالة ابن فضلان في وصف تلك الأصقاع بدائية أقوام الترك والبجناك والصقالبة البلغار والروس والخزر في تعاملهم مع المرض وطرق الاستشفاء منه ومعالجته ، وهذا الأمر لا يقتصر على بلدان أوربا الشرقية فحسب ، ونعني بذلك الصقالبة البلغار والروس والخزر ، بل عموم بلدان أوربا ، إذ كان لرجالات الدين دورهم

البارز في تطبيب الناس من المرض بوسائل اقل ما يقال عنها أنها كانت خرافية وممزوجة بهرطقة رجال الدين الأوربيين في العصور الوسطى ، وهذا ما قد اشرنا إليه سلفا لصلتهم بالرمزية العقائدية الدينية .

وهذا تحديدا ما كان يدفع أرباب الملك والسياسة إلى تكليف عامتهم من المشتغلين في تحصيل العلم ، فضلا عن التجار إلى جلب وسائل الاستشفاء من المرض وأنواع العلاجات من العرب المسلمين ، واقتباس نظمهم الصحية وتعلم ما كان ينشره ويصنعه فقهاء الطب المسلمين ونقله إلى بلدانهم ، وهذا ما وجدنا دلالته في تفاصيل رسالة ابن فضلان هذهِ .

ونحن لا نريد أن نقحم في هذا البحث مجمل وسائل التطبب وطرق معالجة المرض في عموم أوربا زمن رحلة ابن فضلان ، توخيا للدقة ، فاكتفينا بذكر الأجزاء الشرقية منها تماشيا مع تفاصيل البحث من جهة ، ومضمون رسالة ابن فضلان من جهة أخرى ، والتي أساسها في وصف بلاد الترك وبلدان شرق أوربا .

وعلى أية حال فان مجمل طرق معالجة المرض التي مارستها تلك الأمم وخبرتها لا تتعدى الطريقة الواحدة ، سبق وان وصفناها بأنها كانت بدائية ،إذ كانت تمثل جزءً من موروثاتهم الاجتماعية منذ عهدهم القديم ، ففي معالجة المرض في بلاد الترك كان المريض يعالج بأن يترك خارج بيتهِ ، فتضرب له خيمة ليقيم فيها حتى يُشفى أو يموت ، وفي أي وقت كان ذلك ، سواء أكان في الصيف أم الشتاء ، مع ما وصفناه من شدة مناخ تلك البلاد القاسية ، فقال أبن فضلان : ((وإذا مرض الرجل منهم ، وكان له جوار وعبيد ، خدموه ولم يقربه احد من أهل بيته ، ويضربون له خيمة ناحية من البيوت ، فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ))[85] ، وهذا إن كان المريض من ذوي اليسار والقدرة ، أما إذا كان من فقراء القوم أو عبيدهم فمعالجته تختلف ، قال ابن فضلان : ((وإن كان عبداً أو فقيراً رموا به في الصحراء وارتحلوا عنه))[86] ، فكانت طريقتهم بالتطبيب وفق هذا الوصف لا تتعدى رميه في الفلاة فان طاب وشفى يلحق بقومه ، أما إذا مات فتأكله ضواري الهوام ، وهذه الطريقة الطقسية في معالجة المرض التي تتطبب بها تلك الشعوب ، هي بالاصل ذات ارتباط سماوي ، ولها علاقة بالتجدد الزمني ، أي ما يطلق عليه اصحاب الفلسفة بالعودة الأبدية أي العودة إلى الحياة ، وهنا تاتي اهمية الطقوس والاساطير المرافقة لما له علاقة بالبداية (العودة الابدية) .[87]

لذا فطقوس رمي المريض في العراء بحسب ثقافة هذه الاقوام هو القذف بالمريض خارج الزمن الدنيوي (الحالي الذي يعيشه) لينكفئ إلى الزمن البدائي ، أي أن يرجع إلى اصل العالم (البداية التكوينية) ليتسنى له بعد ذلك أن يبدأ حياته من جديد ، فرميه في العراء يكون بعد أن تلقى عليه بعض الترنيمات والتعويذات وتلاوة الاساطير التي تمثل جميع البدايات ، فن شفا المريض تكون فيها عودته بعد أن عاد إلى الزمن الاصل وحيا حياته الجديدة ، أو أن يموت فتدخل بذلك ضروريات تجدد الكون واستمراريته ، وهذا ما سنوضحه عند حديثنا عن الموت وطقوسه .

وفي حضارات الشرق واوربا لا يصبح العلاج ناجعا وناجحا إلا بمعرفة اصل المرض ، وطبعا أن اصل تلك الامراض مرتبطة باسطورة أو خرافة ، أي أن ذلك المرض ارتبط فرضيا باسطورة أو شياطين مسبب له[88] ، ولهذا وجب على من يمارس التطبب أن يعرف ذلك البعد الاسطوري والخرافي للمرض ، فلا بد له اذا عندما يريد أن يمارس مهامه أن يعود بالمريض إلى بعده الزماني إلى تلك الاسطورة والخرافة ليشفيه ، وسواء اكان ذلك الفرد كاهنا أو أي شخص في القبيلة ، على شاكلة أن ترمي العائلة مريضها في العراء لكي ياخذ الزمن مجراه في شفائه ، وفي أحسن الحالات أن يكون معه من يخدمه ليلبي ضروریاته .

ولهذا كان لابن فضلان أن يعجب مستغرباً مما رآه ، وفي البلاد الإسلامية يعالج المريض بطريقة تضاهي الدول المتقدمة في وقتنا هذا ، ولعلنا نرد مثالاً على ذلك ليفهم الفرق بين الحالتين ، ففي مستشفيات البلاد الإسلامية ، البيمارستانات ، وأولها قاعدة البلاد بغداد كانت عندما تستقبل المريض يُرسل إلى مركز العناية الأولية ، حيث يذهب كل مريض ليعاينه الأطباء المساعدون وطلاب الطب ، فإن كان استطبابه لا يستوجب بقائه في البيمارستان تعطى له وصفة ، فيحصل بموجبها على دوائه وتصرف له من صيدلية الدار ، أما إذ كان خلاف ذلك واستوجب البقاء ، عُرض على رئيس الأطباء ليقدر كم يبقى للاستطباب ، ليحمل بعدها إلى قسم الرجال ، فيحميه الممرض حماماً ساخناً ويلبسه ثياباً نظيفة من البيمارستان ، ثم يذهب إلى مكانه المقرر ليخضع للعلاج في قسم داخلي حيث مضاجع المرضى ، ومنها تنبعث أصوات الموسيقى في قاعة مخصصة يطلق عليها قاعة النقه ، إذ كان الأطباء ينقهون مرضاهم بالموسيقى الجميلة ، ويقضي البعض منهم وقتهم بالمطالعة المفيدة في مكتبة المستشفى ، وصباح كل يوم يأتي رئيس الأطباء مع معاونيه يفحص المرضى ، ويوصي الأطباء المعنيين بنوع العلاج لكل مريض ، وكانت أسرة المرضى وفيرة والفرش نظيف وفي غاية اللطف والنعومة ، والماء وافر ، وفي أيام البرد تدفأ كل الغرف ، أما المأكل فهناك لحم الدجاج والماشية يقدم لكل من يستطيع أن يهضم ، وعندما يخرج المريض من البيمارستان (المستشفى) معافى من المرض يُعطى خمسة دنانير ، حتى لا يضطر للعمل وهو في فترة النقاهة .[89]

وهذا غير أقسام الحريم والمكتب الرئيس في البيمارستان حيث يقيم رئيس الأطباء دروسه للمتعلمين في الطب ، وأقسام الجراحة وفيه تتم العمليات الجراحية[90] ، ونحن لا نريد أن نطيل في هذا فاقتصرنا على ما ذكرنا لأجل المقارنة ليس إلا .

على أن معالجة المرض في البلدان الأخرى التي شملتها رحلة أبن فضلان لا تختلف كثيراً عما كان يفعله الترك في مرضاهم ، ففي بلاد الصقالبة البلغار كان أكثر من يمرض منهم يموت ، لاسيما من يمرض بالقولنج ، وهو مرضٌ معوي مؤلم جداً ، يقول ابن فضلان : ((وما رأيت منهم إنساناً يحمر بل أكثرهم معلول ، وربما يموت أكثرهم بالقولنج حتى ليكون بالطفل الرضيع منهم))[91] ، وهم لا يجدون له علاج أو من يستطيع أن يخفف عنهم خطره ، لهذا طلب ملكهم من الخليفة المقتدر بالله الأدوية ، ومن يعلمهم الدين وبعض العلوم .

وبذا يتجلى من نصوص رسالة ابن فضلان أن جميع من مر بهم من الأمم كانت لهم طريقة واحدة في معالجة مرضاهم وهذا ما اشرنا له ابتداءً ، هي أن يطرحوه في خيمة آملين شفائه حتى يعود كسيرته السابقة أو يموت ، ففي بلاد الروس إذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئاً من الخبز واللحم والماء ، ولا يقربونه ولا يكلمونه ، بل

لا يتعاهدونه في كل أيام مرضه ، لاسيما إن كان ضعيفا أو مملوكاً ، فإن برئ وقام رجع إليهم ، وإن مات أحرقوه ، وإن كان مملوكاً تركوه أرضا تأكله الكلاب وجوارح الطير .[92]

فمخلص القول إن من كان له جاه ومال في تلك الشعوب وتعارض في مرض ، ترك لعبيده وإمائه يعاودوه من مرضه أو في ما ندر بعض أهله ، فان طاب وبريء عاد سيرته الأولى ، أما الفقراء فيتركون عرض العراء حتى يتعافون لوحدهم ثم يعودوا .

وما ينطبق على قبائل الترك في معتقدهم بالمرض وطرق معالجته ينطبق على ما سواهم من الأمم التي كانت تحاكي طريقتهم في العلاج ، وان وجدت فوارق في المعتقدات إلا أن رمزيتها واحدة ، وان حصل ومات من تمرض فان طرق التجهيز والدفن تختلف باختلاف منزلة الميت إن كان غني أو فقير ، أما العبيد والجواري فمصيرهم أن يتركوا في العراء وان ماتوا تأكلهم الهوام ، وهذا ما سنأتي على ذكره في الفقرة اللاحقة .

ـ في وصف الموت وطرق تجهيز الميت ودفنه :

يصف أبن فضلان أساليب أمم الترك الغزية والصقالبة البلغار والروسية والخزرية في تحنيط موتاهم ومعالجة دفنهم ، وجميع طقوسهم ما هي إلا ما مورثته تلك الشعوب من باديات الزمان الغابرة ، التي تتسم بكونها معتقدات وثنية ، وأن كان بعض من مر بهم أبن فضلان مما ذكرناهم كانوا قد دخلوا الإسلام حديثاً ، لكنهم لم يزالوا على ما عهدوا عليه آبائهم ، ونخص بذلك على وجه التحديد الصقالبة البلغار الذين كانوا سبب وفادة ابن فضلان .

ويصف ابن فضلان رسوم التجهيز للميت في بلاد الترك الغزية بقوله : إذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيأة البيت وعمدوا إليه فألبسوه قرطتهُ ومنطقته وقوسه [93] ، وجعلوا في يده قدحاً من خشب فيه نبيذ وتركوه بين يديه إناء من خشب وفيه نبيذاً أيضاً ، وجاءوا بكل ماله وجعلوه معه في تلك الحفيرة ، ثم أجلسوه فيها فسقفوها فتصير كالبيت عليه ، وجعلوا فوق البيت مثل القبة من الطين ، ثم عمدوا إلى دوابه على قدر كثرتها ، فإن كان من أهل اليسار قتلوا مائة أو مائتي رأس ، وإن كان غير ذلك قتلوا واحد ، وأكلوا لحومها إلا الرأس والقوائم والذنب يتركوها ليصلبوها على الخشب ، وقالوا : ((هذه دوابه يركبها إلى الجنة)) فإن كان قتل إنساناً وكان شجاعاً نحتوا صوراً من خشب على عدد من قتل ، وجعلوها على قبره ، وقالوا : ((هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة)) .[94]

وربما عمدوا إلى قتل دواب الميت جميعها ، وقد يستمروا يوما أو يومين إن كان من أهل اليسار ، فيحثهم شيخ من كبارهم فيقول : رأيت فلانا ، يعني الميت ، في النوم فقال لي : ((هو ذا تراني وقد سبقني أصحابي وشققت رجلاي من إتباعي لهم ولست ألحقهم ، وقد بقيت وحيد)) وبعدما ينتهوا من قتل دوابه يصلبونها عند قبره ، فإذا كان بعد يوم أو يومين جاءهم الشيخ نفسه وقال لهم : ((قد رأيت فلاناً وقال : عرف أهلي وأصحابي أني لحقت من تقدمني واسترحت من التعب)) .[95]

وحقيقةً أن هذه النصوص تظهر بشكل جلي أهمية تلك الطقوس بالنسبة لتلك الاقوام ، إذ أن موت الانسان يعد ضرورة لابد منها للعودة ، فالميت في تلك الطقوس الجنائزية يتخلى عن عالم الفانين الدنيوي ليندمج ملتحقا بعالم الخالدين السماوي ، ويتم الاعلان عن ذلك عن طريق احد الاقارب أو الاصحاب[96] ،وهو يتحدث بلسان حال الميت فيقول : ((عرف أهلي وأصحابي أني لحقت من تقدمني واسترحت من التعب)) .

فالرمزية الطقسية التي يؤديها هؤلاء القوم من تشييد الحضيرة والقبة وجلب الأموال والفؤوس والخمر ، ما هي إلا تشييد مقدس يُكرر فيه ولادة الكون والعودة الابدية للميت (مع الاسلاف والخلود) وما الخمر إلا رمزية الماء والنماء الذي بفضله تحيى الارض ، اذا هو رمز لديمومة الحياة وانبعاثها من جديد ، إما القرابين ، الذبائح التي تذبح من امواله فهي تكرار لفعل الخلق ، فهي تطابق الذبيحة التي نحرت عندما نشأ الكون ، ولهذا فتجليات تجدد الكون تظهر في الولادة والزواج والممات ، وما الطقوس التي تقام اثناء هذه المناسبات هي تكرار لما حدث اثناء خلق الكون وبداية الحياة على الارض .[97]

وكان في تقليدهم إن كان لذلك الميت زوجة وأولاد ، تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن أمه .[98]

ومن تقاليدهم أيضا إذا مات منهم أحداً عند صديق له مسلم مُستضافاً ، واجتازت قافلة للتجار المسلمين وفيها ذلك المسلم صديق الميت قتلوه بدمه ، وقالوا : أنهم قتلوه بحبسه إياه لو لم يحبسه لما مات ، ويريدون بذلك أنه لو لم يستضيفه ويؤخره عن المغادرة لما مات ، لذلك يعدون سبب وفاته صديقه المسلم الذي استضافه وأخره فيقتلوه بدمه ، وكذلك إذا سقاه نبيذاً فتردى وسقط ميتا قتلوه بدمه أيضاً ، فإن لم يكن صاحب هذا الميت في القافلة ذهبوا إلى أجل رجلاً فيها فقتلوه ثأراً بدمه .[99]

أما في بلاد الصقالبة البلغار فإذا مات المسلم منهم أو زوج المرأة الخوارزمية غسلوه غسل المسلمين ، ثم حملوه على عجلة تجره وبين يديه مطرد حتى يصيروا إلى المكان الذي يدفن فيه ، فيرفعوه عن العجلة ويجعلوه على الأرض ثم يخطون حوله خطاً ثم يرفعوه ، فيحفرون داخل ذلك الخط قبره ، ويجعلون له لحداً ويدفنوه .[100]

وفي تقليدهم لا تبكي النساء على الميت ، بل الرجال من يبكي عليه ، ويجيئون في اليوم الذي مات فيه بعد أن يُدفن ، فيقفون على باب قبته فيضجون بأقبح بكاء وأوحشه ، وكل هذا للأحرار ، فإذا انقضى بكاؤهم جاء العبيد ومعهم جلود مضفورة (كالحبل) فلا يزالون يبكون ويضربون جنوبهم وما ظهر من أبدانهم بتلك السيور حتى تعلم في أجسادهم مثل ضرب السوط .[101]

ولابد لهم أيضا أن ينصبوا بباب قبته مطرداً ويحضروا سلاحه فيجعلونها حول قبره ولا يقطعون البكاء سنتين[102] ، وإذا انتهت مدة السنتين حطوا المطرد ، وقصوا شعورهم ، ودعا أقرباء الميت دعوة يُعرف من خلالها خروجهم من الحزن ، وإن كانت له زوجة تزوجت .[103]

ويعمل له كل هذا إن كان من الرؤساء ، فأما العامة فيفعلون بعض هذا بموتاهم[104] ، وفي تقليدهم أيضا أن يذهب إرث الميت إلى أخيه دون ولده[105] ، ولأن هذا يخالف الشرع الإسلامي[106] ، فقد فنَّدَ هَمَ ابن فضلان خطأ هذا وشرح كيف تكون المواريث ، فقال : ((فعّرفت الملك ان هذا غير جائز وعرفته كيف المواريث حتى فهمها)) .[107]

وعلى الرغم من اتباع هذه الاقوام السبل الإسلامية في مواكبهم الجنائزية إلا أن معتقداتهم لم تخلو من الرمزية البدائية ذات الطابع الوثني المرافق للاسطورة الابدية والتكوين الميطيقي ، فالرمزية في البكاء والاستمرار فيها مدة سنتين وضرب الجنوب ووضع المطرد اشارة للحزن ، على الميت الذي تبقى روحه بعد أن فارقت عالمهم المادي تتردد على مساكنهم وتشعر بما يفعلون حتى تذهب إلى عالمهم الابدي بعد حينا من الزمن فيقطعون البكاء ، وما البكاء هذا والصوت القبيح إلا طقس تطرد به العفاريت والاشباح التي كانت ترافق الطقس .

وفي القتل فأن لهم تقاليد غريبة جعلتنا نذكر ذلك في البحث ، ففي القتل لهم تقاليدهم تقتضي بأنه إذا قُتل الرجل منهم رجلاً عمدا قادوه به فقتلوه عين بعين ، وإذا كان القتل خطأ صنعوا للقاتل الغير متعمد صندوقا من خشب الخذنك وجعلوه في داخله وسمروه عليه ، وجعلوا معه ثلاثة أرغفة وإناء ماء ، ونصبوا له ثلاث خشبات عراض فعلقوا الصندوق الذي فيه القاتل ، وقالوا : ((نجعله بين السماء والأرض يصيبه المطر والشمس ، لعل الله ان يرحمه)) [108] ، وهكذا لم يزل القاتل معلقا في صندوقه حتى يموت ويبليه الزمن فتذهب به الرياح لطول مدة بقائه في الصندوق معلقاً ، فاما أن يمحو الطر ذنوبه وتتقيه الشمس فيغفر له الله أو أن يبلى . [109]

ويقتلون الزاني كائن من كان ، ومراسيم عقابه تتم بان يجعلوه في أربعة سكك ويشدوا رجليه ويديه إليها ، ويقطعوه بالفأس من الرأس إلى فخذيه ، وكذلك يفعلون بالمرأة الزانية ، وكذا يقتلون السارق كما يقتلون الزاني . [110]

لكن من عجيب مذاهبهم في القتل أنهم إذا رأوا إنساناً ذي حركة وهمة ومعرفة في الأشياء قالوا : ((هذا حقه أن يخدم ربنا)) فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلاً وعلقوه في شجرة حتى يتقطع[111] ، وفي هذا المشهد يكون الانسان قربانا إلهياً ، وهو محاكاة لذبيحة الخلق ، وهذا ما سبق وان ذكرناه .

وفي بلاد الروس الوثنية فأن طريقة تجهيز الميت ودفنه ، لاسيما أكابر القوم منهم ورؤسائهم ، تمر بطقوس عجيبة ، يصفها ابن فضلان وهو شاهد عيان على ذلك بقوله : إن رجلاً من هؤلاء جليل القدر مات فجعلوه في قبره وسقفوا عليه قبره بقطع من خشب عشرة أيام[112] حتى ينتهوا من قطع ثيابه وخياطتها ، ثم يجمعون ماله ويجعلوه على ثلاثة أثلاث ، فيذهب منها ثلث لأهله ، وثلث يقطعون له منها ثياباً ، وثلث يُصيروه في تجهيز نبيذاً يشربوه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها (الميت) .[113]

وتتم عملية القتل وبدء مراسيم التشييع والدفن بان يقول أهله وعشيرته لجواريه وغلمانه من منكم يموت مع مولاه ، فيقول بعضهم ((أنا)) فإذا قال ذلك وجب عليه القتل ولا يمكنه فيما بعد التنصل و العدول عن هذا أبداً ، وأكثر من يفعل هذا في عرفهم الجواري بدل الغلمان ، وعندما تقبل أحدى جواريه القتل لتكون معه في عالمه الآخر ، ونعني بذلك مع سيدها الميت ، تُوكل بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها أينما ذهبت ، حتى إنهما تلبيان كل ما تحتاج إليه وإن طلبت غسل رجليها بأيديهن ، وبينما أهل الميت وأقاربه وعشيرته يتجهزون بقطع القماش وصناعة الملابس ، تكون الجارية لاهية وتشرب وتغني فرحة مستبشرة .[114]

فلما كان اليوم الذي يحرق فيه الميت معه جاريته بعد أن تقتل ، تُحضر الجارية إلى السفينة التي جلبت له ووضعت على جرف النهر من أجل ذلك ، فيأخذوها ، أي الجارية ، ويلقونها على خشبة كأنها سرير سبق وأن أُعدت إليها فيمدونها عليها ، وبعدها يأخذ أهله يذهبون ويجيئون ويترنمون بكلام ، والميت مازال في قبره بعد ، لم يخرجوه من حفرته المغطاة بسقف من خشب عليه التراب الذي وُضع فوقه ، ثم يجيئون بسرير فيجعلوه على السفينة ويفرشوه بأنواع الفرش المصنوع من الديباج الرومي والمسانيد ، ثم تجيء امرأة عجوز يطلقون عليها اسم ملك الموت ، فتفرش على السرير الفرش ، وهي من تولى خياطته وإصلاحه من قبل مراسيم التشيع والحرق هذه ، وبدورها هي المسئولة أيضاً عن قتل الجواري مع أسيادهن في مثل هكذا أمور .[115]

وبعد وصف ابن فضلان هذا ، تبدأ المرحلة الثانية وفيها يذهب أهل الميت وأقاربه إلى قبره فيحثوا التراب عن الخشب ثم يرفعون الخشب لاستخراج الميت من داخل القبر وعليه ثيابه التي مات فيها وجثته مسودة ، وجمعوا جميع ما تركوا معه من نبيذ وفاكهة ، ثم ينزعون ما عليه من رداء ويلبسوه سراويل وخفاً (نعل) وقرطاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب ، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية [116] ، وحملوه حتى ادخلوه القبة التي على السفينة التي أعدت له ، فأجلسوه على المضربة وأسندوه بالمساند وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والرياحين ووضعوه معه ، ثم جاءوا بخبز ولحم وبصل ووضعوه بين يديه ، وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين والقوه في السفينة ، ثم جاءوا بجميع سلاحه ووضعوه إلى جانبه ، ثم أخذوا دابتين فجعلوها تجري حتى تتعب ثم يقطعوها بالسيف وألقوا بلحمها في السفينة ، ثم جاءوا ببقرتين فقطعوها أيضاً وألقوها في السفينة ، ثم جاءوا بديك ودجاجة فقتلوها وألقوا بها في السفينة كذلك ، وأثناء ذلك كله الجارية التي تريد أن تُقتل مع سيدها ذاهبة وقادمة ، تدخل قبة قبة من قبابهم فيُجامعها صاحب القبة ويقول لها : ((قولي لمولاك إنما فعلتُ هذا من محبتك)) [117] .

فلما كان وقت العصر جاءوا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل جوانب الباب فوضعت رجلها على أكف الرجال ويحملوها حتى تشارف ذلك الشيء فتكلمت بكلام فينزلوها ، ثم أصعدوها مرة ثانية وفعلت كفعلتها الأولى وتستمر ثلاث مرات وهي تقول ذلك الكلام كجزء من طقوسهم ، ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة .[118]

وبعد أن تكمل الجارية فعلتها هذه تذهب نحو السفينة فتنزع سوارين وتدفعها إلى المرأة العجوز (ملك الموت) لتقتلها ، ثم تنزع عنها خلخالين كانا في رجلها فتدفع بهما إلى الجاريتين اللتان كانتا يخدمانها ، وهذين الجاريتين هما ابنتا المرأة المعرفة بملك الموت . [119]

وبعد أن تصعد الجارية إلى السفينة يجيء الرجال ومعهم التراس والخشب فيُعطى إليها النبيذ فتغني عليه وتشربه وهي بذلك تودع صاحباتها ، ثم تُعطى كأس من نبيذ آخر فتأخذه وتطول في الغناء ، والعجوز تحثها على شربه والدخول إلى القبة التي

على السفينة وفيها سيدها ، ثم تتوجه نحو القبة لتدخلها فتضع رأسها بين القبة والسفينة ، فتأخذ العجوز رأسها وتدخلها القبة ودخلت معها ، وأثناء هذا يأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس[120] ، لئلا يسمع صوت صياحها من جراء قتلها فيجزع غيرها من الجواري عن فعل ذلك ، فلا يطلبن الموت مع أسيادهن ، وقبل أن تُقتل الجارية يدخل القبة ستة رجال فيجامعونها كلهم ، ثم يضجعونها إلى جانب سيدها فيمسك اثنان رجليها ، واثنان يديها ، وجعلت المرأة العجوز (ملك الموت) في عنقها حبلاً ودفعته إلى اثنين ليجذبوه ويشدوه لألا تتحرك ، فأقبلت العجوز ومعها خنجر عريض النصل فأخذت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضع ، وتخرجه والرجال يخنقونها حتى الموت ، ثم يأتي أقرب الناس إلى الميت فيأخذ خشبة ويشعلها في النار ويتجه نحو السفينة وهو عرياناً ، ظهره نحو السفينة ووجهه إلى الناس (مشياً قهقري) والخشبة المشتعلة بيد واحدة ، وإحدى يديه على أسته (مؤخرته) حتى يقترب من السفينة فيحرق الخشب المعبأ تحتها ، بعدما وضع الرجال الجارية التي قتلوها إلى جانب سيدها .[121]

ثم يأتي الناس بالخشب والحطب مع كل واحد خشبة مشتعلة من رأسها فيلقيها إلى ذلك الخشب[122] ، ويقول ابن فضلان ((فتأخذ النار بالحطب ثم في السفينة ثم في القبة ، والرجال والجارية وجميع من فيها))[123] .

فلم يمضي على الحرق ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجارية وسيدها رماداً ، ثم يبني أقاربه على موضع السفينة ، بعد ما يخرجوا ما تبقى منها من النهر ، شبيهاً بالتل المدور ويضعوا في وسطه خشبة كبيرة وكتبوا عليها أسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا .[124]

والمشهد الجنائزي هذا لا يختلف كثيرا عن ما اوردناه سابقا عند حديثنا عن طقوس القبائل التركية الجنائزية ، أي أن رمزية الشعائر التي يؤديها الروس تطابق إلى حد ما رمزية الترك ، واخلافها يكون في بعض تلك التي تتعلق بحفل الخمر الذي هو ذاته اشارة إلى النماء واستمرار الحياة ، أو حفل المجون والتهتك الذي يمارس مع الجارية الذي يعني بدائية التكوين ، أي انه يحاكي اسطورة خلق الكون والتكاثر ، أو تلك المشاهد التي يحملون فيها التروس والاسلحة ما هي إلا احتفالا يشترك فيها الناس ليمثلوا ارواح السلف والالهة ، وغالبا ما تعتقد بعض الديانات أن في مثل هذه الطقوس الجنائزية تدنوا ارواح الموتى من مساكن الناس فيأتي هؤلاء للقائهم باحترام وتدوم هذه الطقوس عدة أيام .[125]

ورمزية الجارية المذبوحة في ذلك القربان الإلهي الذي فيه تعاد الحياة ، أي الانبعاث الجديد والعودة الابدية التي لا تتم إلا بعد أن تُضمر النار في الميت وجاريته وهم معا في موكبهم الجنائزي الذي يرحلون فيه إلى العالم الابدي (المركب المحترق) ، ومن يقوم بتلك الطقوس هي الساحرة ذات الصلة بذلك البعد العقائدي الأسطوري .

وبذلك ووفقا لهذه المعتقدات فان الميت يتحول إلى السلف وما النار التي تضرم إلا محاولة لفناء الحياة الدنيا واعادة الحياة الابدية للميت ، أي اعادة الخلق الجديد ، فالنار تمثل زوال الحياة الدنيا زنقل الروح إلى عالم السلف ، وبعبارة أخرى أن الحرق يعني وضع حدٍ للشكل القديم المستهلك بسبب استمراريته في الحياة وصولا إلى الهرم واستبداله بالشكل الجديد في الحياة الأبدية .

أما الفقير منهم فلا يكون له ما قد سبق ذكره إلا بعضها ، فأهله وأقاربه يعملون له سفينة صغيرة فيضعونه عليها فيحرقونه[126] ، والمملوك العبد فانه يترك من غير حرق في العراء ملقيا تأكله الكلاب وجوارح الطير .[127]

وفي عقابهم للسارق فأنهم يقتلونه بأن يأتوا به إلى شجرة غليظة ، ويشدون في عنقه حبلاً وثيقاً ويعلقوه إليها ويترك حتى يتقطع من طول المكوث معلقاً وتبليه الرياح والأمطار .[128]

ومن رسم ملوك الروس أن يكون معهم في قصورهم أربعمائة رجل من صناديدهم وثقاتهم ، وهؤلاء جميعهم يموتون بموت مليكهم ويقتلون دونه .[129]

وفي بلاد الخزر فأن ابن فضلان لم يتكلم عن رسوم تحنيط ودفن الموتى من العامة أو حتى أكابر القوم ، وإنما ركز ذكره على رسم ملك الخزر الأكبر إذا مات ، فيقول : ورسم ملك الخزر الأكبر إذا مات أن يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتاً ، ويحفر له في كل بيت منها قبر ، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه ، وتطرح النورة [130] فوق ذلك ، وتحت الدار نهر ، وهو نهر كبير يجري ، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ، ويقولون : ((حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام))[131] .

وإذا دفن ضُربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يُعلم أين قبره من تلك البيوت ، ويسمى قبره الجنة ، ويقولون : ((قد دخل الجنة)) وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب [132] ، وإذا طال حكمه على الأربعين سنة ولم يمت ، فأن في عاداتهم أن يحكم الملك أربعون سنة فإذا جاوزها الملك يوما واحداً قتله الرعية وخاصته ، وقالوا : ((هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه))[133] .

وهذه جل ما أورده ابن فضلان في عادات الأقوام التي زارها أثناء رحلته في معالجة المرض والموت ، وهي جميعها تخالف ما كان عليه المسلمين سواء أكان في معالجة المرض أم في شرع تحنيط الميت ودفنه والتي تجري وفق الشرع الإسلامي وهي بأن تُغسل جثة الميت ثم يحنط بالكافور ثم يكفن ثم يدفن في لحده .

هوامش البحث :

1- في ما يخص بلاد الترك والصقالبة والروس ينظر اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب اسحاق بن جعفر ، البلدان ، وضع حواشيه محمد امين ، دار الكتب العلمية (بيروت:2002م) ص13 وما بعدها .

2 - ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله عبد الله ، المسالك والممالك ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة :د/ت) ص154-155 .

3 - الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مكتبة الارشاد (صنعاء:1990م) ص48-49 .

4 ـ قدامة بن جعفرر ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، تعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر (بغداد:1981م) ص139، 157، 196 ، 322 .
5 ـ ابن الفقيه الهمداني ، ابو بكر احمد بن محمد ، مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل (ليدن:1302هـ) ص6-7 ، 389-398 .
6 ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر (بيروت:1973م) ج1 ،ص125-126، ص179-185 .
7ـ الاصطخري ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك (ليدن:1927م) ص217-227 .
8 ـ ابن حوقل ، ابو القاسم بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الارض ، مكتبة الحياة (بيروت:1992م) ص327-337م .
9 ـ البكري ، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، المسالك والممالك ، تحقيق جمال طلبة ، دار الكتب العلمية (بيروت:2003م) ج2،ص20-25 .
10 ـ الروس : قال ياقوت الحموي ان الروس ينقسمون الى ثلاثة اصناف فمنهم قريب من البلغار وملكهم يقطن في مدينة تسمى كوثابة ، وصنف اعلى منهم ويسمون الصلاوبة وملكهم مقيم باربا، وصنف يسمون الارباوية ، وجميعهم قرب بلاد البلغار والخزر أي في شرق اوربا .
ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البدان ، دار احياء التراث (بيروت:د/ت) ج4 ، ص488 .
11ـ الخزر :هي بلاد الترك خلف باب الابواب المعروف بالدربند قريب من سد ذي القرنين ، الخزر اسم لمملكتهم . ينظر م . ن ، ج2 ، ص 367 .
12 ـ راجع المصادر المذكورة انفا حول بلاد الروس والخزر والصقالبة البلغار وبلاد الترك .
13 ـ البلغار : بالضم ، والغين معجمة : مدينة الصقالبة ضاربة في الشمال ، شديدة البرد لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفا ولا شتاء وقل ما يرى أهلها أرضا ناشفة ، وبناؤهم بالخشب وحده ، وهو أن يركبوا عودا فوق عود ويسمروها بأوتاد من خشب أيضا محكمة ، والفواكه والخيرات بأرضهم لاتنجب ، وبين إتل مدينة الخزر وبلغار على طريق المفاوز نحو شهر ، ويصعد إليها في نهر إتل نحو شهرين وفي الحدور نحو عشرين يوما ، ومن بلغار إلى أول حد الروم نحو 48كم ، ومنها إلى كويابة مدينة الروس عشرون يوما ، ومن بلغار إلى بشجرد 120كم ، وكان ملك الصقالبة بلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 1، ص 485، 486 .
14 ـ كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليا نوفتش ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، دار الغرب الاسلامي (تونس:2008م) ص 202 .
15 ـ الخوارزميين : قبائل من الترك والديلم ينسبون الى خوارزم اقليم من خراسان وقاعدته الجرجانية . ينظر البكري ، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الاندلسي(ت487هـ) ، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواقع ، تحقيق مصطفى السقى ، عالم الكتب (بيروت:1982م) ج2، ص515 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2، ص390 .
16 ـ الغز : الغزية قبيلة من الاتراك البدوية بيوتهم من الشعر ، وهم في حل وترحال مستمر وحدود ديارهم يقال لها بلاد الترك ما بين الخزر والكيماك . ينظر ابن فضلان ، احمد بن فضلان بن العباس (ت ق 4هـ) ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، دار صادر (بيروت:1993م) ص89-91 .
17ـ البجناك : البنجاك قبيلة من الاتراك الغزية من القفجق واصلهم من تركستان الصينية ، وكانت مواطنهم في الاورال والفولكا بجوار الخزر . ينظر دائرة المعارف الاسلامية (ليدن:1913م) ج3،ص1107 .
18 ـ قبائل الباشغرد : قبائل من الترك يقطنون قرب الفولكا . ينظر م . ن ، ص 107 .
19ـ ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 67 وما بعدها .
20 ـ م . ن ، ص68-69 .
21ـ ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا(ت709هـ) ، الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية، مطبعة امير (طهران:1414هـ) ص 260 .
22 ـ الدوري ، عبد العزيز ، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت:2007م) ص144 .
23 ـ ابن الطقطقي ، الفخري ، ص262 .
24 ـ مسكويه ، ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب (ت421هـ) ، تجارب الامم وتعاقب الهمم ، تحقيق ابو القاسم امامي ، دار سروين للنشر (طهران:1998م) ج5 ، ص322 .
25 ـ ابن الفرات : الوزير الكبير ابو الحسن علي بن ابي جعفر محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات العاقولي الكاتب ، كان ابن الفرات متولي امر الدواوين زمن الخليفة المستكفي ، فلما ولي المقتدر وزر له ابن الفرات سنة 296هـ بعد فتنة ابن المعتز ، واستمر حتى سنة 299هـ فعزل ، ثم وزر مرة ثانية سنة 304هـ على اثر عزل علي بن عيسى ، ثم عزل بعد سبعة عشر شهرا ، ثم وزر مرة ثالثة سنة 311هـ واستمر حتى نكب وقتل سنة 312هـ ، وعرف عنه حسن سياسته وعدله بين الرعية .
ينظر الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان(ت748هـ) ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعب ارنؤوط ، مؤسسة الرسالة (بيروت:1993م) ج14 ،ص474-479 .
26 ـ علي بن عيسى : الامام المحدث الصادق الوزير العدل ابو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادي الكاتب ، وزر غير مرة للمقتدر والقاهر ، وكان عديم النظر في فنه ، وكان من بلغاء قومه له تصنيف وتأليف عدة ، وزر للمقتدر سنة 301هـ واستمر ابعة سنين ، ثم عزل ثم وزر مرة ثانية سنة 315هـ ، ثم نكب واستبعد ، توفي سنة 334هـ .

ينظر م . ن ، ج15 ، ص 298 ،301 .
27 ـ حامد بن العباس : الوزير الكبير ابو الفضل الخراساني ثم العراقي ، كان من رجال العلم ذا شجاعة واقدام ونقض وابرام ، تولى عمال جليلة في نواحي العراق ثم ضمن خراج البصرة وكور دجلة مدة زمن دولة ابن الفرات وكان كثير الأموال ، وزر سنة 306هـ على اثر عزل ابن الفرات فقدم على ابهة عظيمة ودبر الامور فظهر منه نقص في قوانين الوزارة وحدة ، فضموا اليه علي بن عيسى فمشى الحال ، توفي سنة 311هـ .
ينظر م . ن ، ج14 ، ص356-359 .
28 ـ الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، ص145 .
29 ـ ينظر ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، المقدمة ص 19 وما بعدها .
30 ـ صاعد بن مخلد : الوزير الكبير من نصارى كسكر ، اسلم وكتب للموفق ، ثم وزر للمعتمد سنة 266هـ ولقب بذا الوزارتين ، ثم قبض من قبل الموفق وصودرت أمواله ، توفي سنة 276هـ . الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج13 ، ص327 .
31 ـ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج5 ، ص105-106 .
32 ـ المخرم : محلة كانت في بغداد بين الرصافة ونهر المعلى ، ومنسوبة الى مخرم بن يزيد بن شريح بن مخرم ، كان ينزله ايام نزول العرب السواد في بدء الاسلام قبل ان تعمر بغداد بمدة طويلة ، فسمي الموضع باسمه .
ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج5 ،ص 71 .
33 ـ دار البستان : وتقع في الجانب الشرقي من بغداد ويعرف ببستان موسى .
ينظر الخطيب البغدادي ،ابو بكر احمد بن علي (ت463هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية (بيروت:1997م) ج13 ،ص25 .
34ـ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج5 ، ص 106 .
35 ـ م . ن ، ج5 ، ص 106-107 .
36 ـ م . ن ، ج5 ، ص 107 .
37 ـ م . ن ، ج5 ، ص 107 .
38 ـ م . ن ، ج5 ، ص 107 .
39ـ مؤنس الخادم : مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي ، احد الخدام الذين بلغوا مرتبة الملوك ، كان من خدام المعتضد العباسي ، وكان فارسا شجاعا من دهاة الساسة ، بقي ستين سنة اميرا ، وولي دمشق للمقتدر ، ولما تولى القاهربالله الخلافة قتله سنة 321هـ .
الزركلي ، الاعلام ، ج7 ، ص335 .
40 ـ مطارف خز :المطرف ثوب كان الرجل والنساء يلبسونه والجمع مطارف والخز ذكر الارانب ، ومطارف خز ثياب مصنوعة من الابريسم في طرفيه علمان من الوشم .
ينظر الخليل الفراهيدي ، ابو عبد الرحمن خليل بن احمد (ت175هـ) ، كتاب العين ، تحقيق مهدي مخزومي وابراهيم السامرائي ، مطبعة صدر (طهران:1409هـ) ج4، 136، ج7، 416 (مادة مطرف وخز) ؛ ابن سلام ، ابو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ) ، غريب الحديث ، تحقيق محمد عبد المعيد خان ، دار الكتاب العربية (بيروت:1964م) ج1 ، ص 226 ؛ ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ) ، لسان العرب ، نشر ادب الحوزة (قم:1405هـ) ج9 ،ص 220 (مادة مطرف) .
41ـ مسكويه ، تجارب الامم ، ج5 ، ص108 .
42ـ معجم البلدان ، ج1 ، ص88 .
43ـ هو محمد بن سليمان الحنفي ابو علي الكاتب الملقب بالاستاذ ، قائد عراقي عرف بقوته ، ولي الكتابة للؤلؤ غلام احمد بن طولون صاحب مصر ، ثم عاد الى بغداد واتصل بالخليفة المكتفي العباسي فتقدم وصار من قواده ، فارسله الى قتال القرامطة في بلاد الشام الذين استفحل امرهم ، فكسرهم سنة 291هـ ، ثم عاد الى بغداد فخلع عليه المكتفي ووجهه الى مصر وفيها بقية من الطولونيين ، فقتلهم وأزال ملكهم ومحا آثارهم وهدم قصورهم ، وعاد الى بغداد سنة 292هـ وهو حاملا أموالهم ، ثم اعتقله المكتفي لما وصل إليه من أخباره في مصر ما أثار نقمته عليه ، وبقي حتى أطلقه ابن الفرات وزير المقتدر بالله سنة 297هـ ، فولاه الضياع والاعشار في قزوين من بلاد فارس ، قتل في معركة على باب الري سنة 304هـ .
ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت499هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر (بيروت:1995م) ج45 ، 190 ؛ الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت748هـ) ،سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة (بيروت:1993م) ج4 ، ص18 ؛ الزركلي ، خير الدين الزركلي ، الاعلام ، دار العلم للملايين (بيروت:1981م) ج6 ، ص149 .
44 ـ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج1 ، ص 486 .
45ـ الزركلي ، الاعلام ، ج1 ، ص195 .
46 ـ ينظر ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص38-41 .
47 ـ نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، الشركة العلمية للكتاب (بيروت:1987م) ص151 .
48ـ عبد الله بن باشتو : لم اجد له ترجمة في كتب اليسر والتراجم .
49ـ ينظر ابن فضلان ،رسالة ابن فضلان ، ص 68-69 ؛ حسن ، زكي محمد ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي (بيروت:1981م) ص21 .

50 ـ سوسن الرسي : الرسي نسبة الى نهر يقال لهر الرس ويقع مابين بلاد اذربيجان واران من بلاد الترك ، الرس ايضا اسم بئر من بلاد اليمن ويقال اسم جبل أو اوادي من بلاد اليمن وقد جاء ذكره في القران الكريم ، والمراد بالرسي هنا نسبة الى نهر الرسل ذلك في بلاد اران من اقليم الترك في الشمال الغربي ، وسوسون الرسي هذا مبعوث الخليفة مع ابن فضلان الى ملك الصقالبة هو مولى لنذير الخرمي من خوارزم شاه ولم نجد لنذيرا هذا ترجمة في كتب التراجم والسير .
ينظر ياقوت الحموي ،معجم البلدان ، ج1 ،ص 136 ،ص486 ،ج3،ص43
51 ـ ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص69 .
52- م . ن ، ص68 .
53- كراتشكوفسكي ،تاريخ الادب الجغرافي ، ص 202 .
54- همذان : من اقليم الجبال في بلاد فارس افتتحها المغيرة بن شعبة عام 24هـ بعد مقتل عمر بن الخطاب (رض) بستة اشهر ، وهي اكبر مدن الاقليم قديمة الوضع ، ويقال ان معنى اسمها المحبوبة ، واكثر ما يميزها في طبيعتها شدة بردها .
ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج5 ، ص410-414 .
55- الري : مدينة مشهورة من بلاد فارس من امهات البلاد واعلام المدن بينها وبين نيسابور حوالي 768كم والى قزوين 129كم .
م . ن ، ج3 ، ص116 .
56- نيسابور : مدينة عظيمة من بلاد فارس كثيرة الكور والخيرات وقيل سميت بذلك لان نيسابور مر بها ، فتحت المدينة سنة 31 صلحا . ينظر اليعقوبي ، البلدان ، ص95 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج5، ص331-332 .
57- مرو : اشهر مدن خراسان وقصبتها من بلاد فارس والنسبة اليها مروزي ، ومعنى اسمها بالعربية الحجارة البيضاء التي يقتدح بها . اليعقوبي ، البلدان ، ص 98 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 5، ص112- 113 .
58- بخارى : بخارى بالضم من أعظم مدن ما وراء النهر واجلها يعبر اليها من آمل الشط ، وبينها وبين نهر جيحون يومان من هذا الوجه ، وكانت قاعدة الدولة السامانية .
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج1 ، ص353 .
59- السامانيين :دولة تاسست في بلاد ما وراء النهر ومؤسسها من اولاد اسد بن سامان وهو نوح بن سامان وكان واليا لسمرقد ايام المامون ودامت دولتهم حتى سنة 389هـ عندما سقطت بايدي الغزنويين ايام اميرها اسماعيل بن نوح بن اسد بن سامان .
انظر الغفاري ، عبد الرسول عبد الحسن ، الكافي والكليني ، مؤسسة النشر الاسلامي (قم :1416هـ) ص 236 .
60- الجيهاني : محمد بن احمد بن نصر الجيهاني ابو عبد الله اديب وكاتب ، تولى الوزارة للسامانيين ببخارى ، له من الكتب العهود والخلفاء والامراء والمسالك والممالك ، توفي سنة 330هـ . ينظر م . ن ، ج2 ، ص202 ؛ عمر كحالة ، معجم المؤلفين ،ج2 ،ص165 .
61- خوارزم : ناحية كبيرة وهي عدة مدن ذات اسواق وخيرات ودكاكين وقاعدتها مدينة يقال لها الجرجانية وتقع ناحية خوارزم الى الجنوب من بحيرة خوارزم (آرال) وشرق قزوين ، وهي في العصر الحديث من ضمن بلاد تركستان الروسية . ينظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2 ، ص 395 وما بعدها .
62- بحر آرال : تسمى في العصور الوسطى بحيرة خوارزم وهي من بلاد تركستان الروسية ويصب فيها نهرا جيحون وسيحون ، ومائها مالح على الرغم من كثرة روافدها من المياه العذبة . ينظر م . ن ، ج1 ، ص351 .
63- يسمي الادريسي نهر اتل (الفولكا) نهر الرس .
ينظر الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، عالم الكتب (بيروت:1989م)ج2، ص830 .
64- كراتشكوفسكي ،تاريخ الادب الجغرافي ، ص 202-203 .
65- ابن فضلان ،رسالة ابن فضلان ، ص 80 .
66 ـ نهر جيحون : نهر يعرف جريانه يخرج من بلاد وخاب من حدود بذخشان ويضم اليه انهار في حدود الختل ووخشن فيصير في تلك الانهار هذا النهر العظيم ويضم اليه نهر يلي جرياب يسمى بأخش وهو نهر هليك مدينة الختل ، ويليه نهران والثالث فارعي والرابع نهر اندنجارع والخامس نهر وخشاب ، وجميع هذه تجتمع كلها وتقع في جيحون قبل منطقة القواديان وتتجه نحو بلاد خوارزم حتى يصب جيحون في بحيرة خوارزم . انظر ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2 ، ص196-197 .
67- م . ن ، ص83 .
68- الغيض : غيض الماء ، الموقع الذي يغيض فيه الماء أي يقل ونضب والغيض الاجمة من الارض وجمعها غياض . ينظر الخليل الفراهيدي ، كتاب العين ، ج4 ، ص430 (مادة غاض) ؛ الجوهري ، اسماعيل بن حماد (ت393هـ) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد بن عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين (بيروت:1987م) ج3 ، ص1096 (مادة غاض) .
69- قداحة وحراقة : القداحة او المقداح الحديد التي يقدح بها ، والقداح الحجر الذي تورى فيه النار والقدح فعل القادح بالزند ، اما الحراقة : الحراق والحراقة ما توضع فيه النار عند القدح . ينظر م . ن ، ج3 ، ص40 (مادة قدح) ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، ج1 ، ص42 (مادة حرق) .
70 ـ ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص84 .
71 ـ م . ن ، ص 85 .
72 ـ م . ن ، ص85 .
73 ـ م . ن ، ص 87 .

74- م . ن ، ص 89 .
75- م . ن ، ص107 .
76 - ينظر احمد ، احمد رمضان ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي (جدة :د/ت) ص46 .
77- تاريخ الادب الجغرافي ، ص 202 .
78 - كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي ، ص 202 .
79 - ينظر كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي ، ص 203 ؛ نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ،ص196 .
80- الياد ، مرسيا ، اسطورة العود الابدي ، ترجمة نهاد خياطة (دمشق : 1987م) ص 71-18 .
81- الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، ص163 .
82- مسكويه ، تجارب الامم ، ج5 ، ص81 .
83- محلة الحربية : محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر الحافي واحمد بن حنبل وتنسب الى حرب بن عبد الله البلخي والمعروف بالراوندي احد قواد ابو جعفر المنصور . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج2 ، ص237 .
84- الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، ص 163 .
85 - ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 99 .
86- م . ن ، ص 99 .
87- الياد ، اسطورة العود ، ص 146-147 .
88- م . ن ، ص151-152 .
89 - هونكة ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون واخرون ، دار الجيل ودار الافاق الجديدة (بيروت:1993م) ص 227-228 .
90 - م . ن ، ص 228 .
91- ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص143 .
92 - م . ن ، ص155 .
93- يراد بذلك قرطه ونطاقه وقوسه .
94- ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 99 .
95- م . ن ، ص100 .
96- الياد ، اسطورة العود ، ص73 .
97- م . ن ، ص44، ص146 وما بعدها .
98 - ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 94 .
99 - م . ن ، ص 96 .
100- م . ن ، ص 143 .
101- م . ن ، ص 144 .
102- م . ن ، ص 144 .
103 - م . ن ، ص 144 .
104- م . ن ، ص 144 .
105 - م . ن ، ص 132 .
106- في العادات والتقاليد التي كانت تخالف الشرع الإسلامي ويفعلها هؤلاء كان ابن فضلان يسعى محاولا تغير عاداتهم ويفقههم خطأ ذلك وحرمته لكنه عجز عن إفهامهم ، راجع قوله يصف بعضاً من تلك الأمور إذ قال : ((وما زلت اجتهد ان يستتر الناس من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك)) . ينظر م . ن ، ص 134 .
107- م . ن ، ص 132 .
108- م . ن ، ص 132 .
109- م . ن ، ص 132 .
110- م . ن ، ص 134 .
111- م . ن ، ص132-133 .
112- في تقليدهم ان يحفر للميت قبره فيوضع فوق حفرة القبر غطاء من خشب ، ثم يوضع فوق الخشب التراب ، ويبقى الميت في قبره لمدة عشرة أيام إلى أن يستخرج لاستكمال مراسيم التشييع والدفن . ينظر م . ن ، ص 158 .
113- م . ن ، ص 156 .
114- م . ن ، ص 156-157 .
115- م . ن ، ص 157-158 .
116- قلنسوة سمورية : رداء الرأس معروف ونسبته بالسمور لأنه يصنع من فرو السمور وهو دابة كالسنجاب . انظر ابن منظور ، لسان العرب ، ج6،ص181 (مادة قلس) .
117- م . ن ، ص 158 ، 159 .
118- م . ن ، ص 160 .
119- م . ن ، ص 161 .

120- الترس : من السلاح المتوقي بها ، وجمعها اتراس ، والترس ايضا خشبة توضع خلف الباب دعامة لها . انظر ابن منظور ، لسان العرب ، ج6،ص32(مادة ترس) .
121- م . ن ، ص 161-163 .
122- م . ن ، ص 163 .
123- م . ن ، ص 164 .
124- م . ن ، ص 164-165 .
125- الياد ، اسطورة العود ، ص102 .
126- م . ن ، ص 156 .
127- م . ن ، ص 155 .
128- م . ن ، ص 155 .
129 - م . ن ، ص165 .
130 - النورة دقيق يستخرج من حجر الكلس عند طحنه .
131 - ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص 170 .
132 - م . ن ، ص 170-171 .
133- م . ن ، ص172 .

مصادر ومراجع البحث

1- احمد ، احمد رمضان ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي (جدة :د/ت) .
2- الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، عالم الكتب (بيروت:1989م) .
3- الاصطخري ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك (ليدن:1927م) .
4- الياد ، مرسيا ، اسطورة العود الابدي ، ترجمة نهاد خياطة (دمشق : 1987م) .
5- البكري ، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الاندلسي(ت487هـ) ، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواقع ، تحقيق مصطفى السقى ، عالم الكتب (بيروت:1982م) .
6- البكري ، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز ، المسالك والممالك ، تحقيق جمال طلبة ، دار الكتب العلمية (بيروت:2003م) .
7- الجوهري ، اسماعيل بن حماد (ت393هـ) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد بن عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين (بيروت:1987م) .
8- حسن ، زكي محمد ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار الرائد العربي (بيروت:1981م) .
9- ابن حوقل ، ابو القاسم بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الارض ، مكتبة الحياة (بيروت:1992م) .
10- ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله عبد الله ، المسالك والممالك ، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة :د/ت) .
11– الخطيب البغدادي ،ابو بكر احمد بن علي (ت463هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية (بيروت:1997م) .
12- الخليل الفراهيدي ، ابو عبد الرحمن خليل بن احمد (ت175هـ) ، كتاب العين ، تحقيق مهدي مخزومي وابراهيم السامرائي ، مطبعة صدر (طهران:1409هـ) .
13- دائرة المعارف الاسلامية (ليدن:1913م) .
14- الدوري ، عبد العزيز ، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت:2007م) .
15– الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت748هـ) ،سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنؤوط ، مؤسسة الرسالة (بيروت:1993م).
16- الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان(ت748هـ) ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعب ارنؤوط ، مؤسسة الرسالة (بيروت:1993م) .
17- الزركلي ، خير الدين الزركلي ، الاعلام ، دار العلم للملايين (بيروت:1981م) .
18– ابن سلام ، ابو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ) ، غريب الحديث ، تحقيق محمد عبد المعيد خان ، دار الكتاب العربية (بيروت:1964م) .
19– ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا(ت709هـ) ، الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية، مطبعة امير (طهران:1414هـ) .
20– ابن عساكر ، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت499هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر (بيروت:1995م) .
21- الغفاري ، عبد الرسول عبد الحسن ، الكافي والكليني ، مؤسسة النشر الاسلامي (قم :1416هـ) .
22– ابن فضلان ، احمد بن فضلان بن العباس (ت ق 4هـ) ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، دار صادر (بيروت:1993م) .
23- ابن الفقيه الهمداني ، ابو بكر احمد بن محمد ، مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل (ليدن:1302هـ) .
24- قدامة بن جعفرر ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، تعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر (بغداد:1981م) .

25- كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليا نوفتش ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، دار الغرب الاسلامي (تونس:2008م) .
26- المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر (بيروت:1973م) .
27- مسكويه ، ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب (ت421هـ) ، تجارب الامم وتعاقب الهمم ، تحقيق ابو القاسم امامي ، دار سروين للنشر (طهران:1998م) .
28- ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ) ، لسان العرب ، نشر ادب الحوزة (قم:1405هـ) .
29- نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، الشركة العلمية للكتاب (بيروت:1987م) .
30– الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، مكتبة الارشاد (صنعاء:1990م) .
31- هونكة ، زيغريد ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون واخرون ، دار الجيل ودار الافاق الجديدة (بيروت:1993م) .
32- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البدان ، دار احياء التراث (بيروت:د/ت) .
33- اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب اسحاق بن جعفر ، البلدان ، وضع حواشيه محمد امين ، دار الكتب العلمية (بيروت:2002م) .